هل للعقل حياة؟

أول حياة ينبغي أن تتدفق فينا حياة العقل، فالإنسان بعقله أكثر مما هو بجسمه، وليس مَن ينكر على اللبناني أو المصري البالغ المدنية منذ أجيال عريقة في القدم ذكاءً فطرياً وعقلاً ثاقباً. فقد برهنوا عن هذا الذكاء، إذ اكبوا منذ صباهم على العلوم في المدارس، فكان منهم حائز قصبة السبق في حلبة العلوم والفائز بالشهادات العالية. وجنوا ثمار أتعابهم في العلوم والفنون والمهن التي تعاطونها، ففيهم المحامي البارع والطبيب النطاسي والكاتب المفكر والتاجر المحنك والمستخدم الفطن.

بيد اننا نشاهد اليوم خصوصاً الكثيرين يستسلمون إلى الراحة بعد أن تكللوا بأكاليل الغار وفازوا بوظيفة تكفل لهم المعاش، فلا يحاولون أن يزيدوا معارفهم حتى في فنهم ومهنتهم، ولا يرون داعياً إلى إجهاد نفوسهم ما داموا حاصلين على الغاية من المكسب، لذلك تندب بلادنا قلّة عدد الرجال والنساء الفنيين الاختصاصيين.

بعد أن يحصل المرء على وظيفة تكفل له بسطة في العيش يبقى عقله محتاجاً إلى الغذاء. وعقله يغتذي من الحقيقة التي هي غايته الحقة، وأهم الحقائق هي معرفة الله ومعرفة النفس والخلائق التي تقودنا إلى غاية ذلك المرء، لذلك وجب عليه أن يطلّع على العلوم الدينية ثم يوسّع دائرة عقله بما أمكنه من المعارف الطبيعية والرياضية التاريخية وسائر العلوم.

ثمّة مَن يجهلون ما تجب معرفته عن الله وكمالاته وعن حقائق وواجبات لا غنى لهم عن معرفتها، فيكتفون بما تعلّموه على مقاعد المدرسة ويا ليتهم استمروا حافظين ما تعلّموه أو طوّروه! وتراهم يتشدّقون في المشاكل الكبيرة الدينية مثبتين أو نافين أدق المسائل في جسارة لا مثيل لها. وان كان لهم بعض الاطلاع على التاريخ فليس على تاريخ الأديان ودينهم بالتحديد وعلى تاريخ بلادهم، فانهم نسوا تقاليدهم المجيدة وعوائد بلادهم الحسنة واكتفوا بتقليد أعمى لعوائد أجنبية مضرّة.

فإذا اتفق لهم ان قرأوا كانت مطالعاتهم للجرائد الخفيفة والروايات المفسدة. ولذلك قلّ أصحاب المبادئ الراسخة والتعاليم القويمة وقلّت الرصانة في أحاديثنا حتى الإذاعية والتلفزيونية وكثر المجون في اجتماعاتنا. وأصبح كثيرون منا يقضون أوقات الفراغ في رقص ولعب قمار وطيش جارين مع التيّار العصري الجارف.

متى يستضيء العقل بنور حقائق الإيمان ونور العلوم الراسخة التي تفضي به إلى الروح النقدية الفاعلة والبنّاءة وينشّط ضياؤه حياة الإرادة التي كثيراً ما نفتقر إليها حتى في أعلى المستويات. فالإرادة تستمدّ قوتها مما يعرضه العقل لها من الخير الذي تسعى وراءه.

من الضروري أن نحسن إدارة إرادتنا، وقد ارتخت العزائم في هذه الأيام أو تشنّجت، وأصبح الذين يقودون أنفسهم أو الشعب في طريق الحياة نزراً قليلاً، فليسعَ مدعي مكافحة الفساد عندنا الحؤول دون سير معظم النّاس شطرَ عوائد وتقاليد وشكليات تجعلهم في أحسن الأحوال كآلات محرّكة فلا يعرفون أن يقدموا على عمل خطير ولا يحسنون اتقانه.

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه